

وقد أمر القرآن بالعدل وسلوك الجادة الوسطى في كثير من آياته. فقال: (إِنَّ يَأْخُذُكُمْ أَنْ تُوَفَّدُوا الْأَمَانَاتَ إِلَيْنَا أَهْلُهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا

بِالْعَدْلِ) (النِّسَاءُ / 58). (اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) (المائدة / 8)، (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) (الأنعام / 152)، (إِنَّ يَأْخُذُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ) (النحل / 90).

نعم، قد أمر القرآن بالعدل، وسلك في تعاليمه مسلك الاستقامة، فنهى عن الشَّحِّ في عدَّة مواضع، وعرَّف الناس مفسده وعواقبه: (وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ تَعَالَى غَفِيرٌ) (آل عمران/ 180).

بينما قد نهى عن الإسراف والتبذير، ودلّ الناس على مفاسدهما: (وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ السُّرْفَ) (الأنعام / 141)، (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) (الإسراء / 27)، (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) (الإسراء / 29).

وأمر بالصبر على المصائب وبتحمل الأذى، ومدح الصابر على صبره، ووعده الثواب العظيم: (إِذَا زُلْزِلَ
يُؤْفَكُوا ۚ فَالْمُصَٰبِرُونَ ۖ أَجْرُهُمْ يَبْغِيهِمْ فَحَسَابٌ) (الزُّمَرُ / 10). (وَاللَّهُ يَحْكُمُ
الْمُصَٰبِرِينَ) (آل عمران / 146).

وإلى جانب هذا، لم يجعل المظلوم مغلول اليد أمام طالمه، بل أباح له أن ينتقم من الظالم بمثل ما اعتدى عليه، حسماً لمادة الفساد، وتحقيقاً لشريعة العدل: (وَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَیْكُمْ فَاَعْتَدُوا عَلَیْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَیْكُمْ) (البقرة/ 194)، وجوز لولي المقتول أن يقتص من القاتل العامد: (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّهُ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ) (الإسراء/ 33).

والقرآن بسلوكه طريق الاعتدال، وأمره بالعدل والاستقامة، قد جمع نظام الدُّنيا إلى نظام الآخرة، وتكفَّل بما يصلح الأولى، وبما يضمن السعادة في الأُخرى، فهو الناموس الأكبر جاء به النبيُّ الأعظم ليفوز به البشر بكلتا السعادتَيْن، وليس تشريعه دنيوياً محضاً لا نظر فيه إلى الآخرة، كما تجده في التوراة الرائجة، فإنَّها مع كبر حجمها، لا تجد فيها مورداً تعرَّضت فيه لوجود القيامة، ولم تخبر عن عالم آخر للجزاء على الأعمال الحسنة والقبیحة. نعم، صرَّحت التوراة بأنَّ أثر الطاعة هو الغنى في الدُّنيا، والتسلُّط على الناس باستعبادهم، وأنَّ أثر المعصية والسقوط عن عين الربِّ، هو الموت وسلب الأموال والسلطة. كما أنَّ تشريع القرآن ليس أُخروياً محضاً لا تعرض له بتنظيم أُمر الدُّنيا كما في شريعة الإنجيل.. فشريعة القرآن شريعة كاملة، تنظر إلى صلاح الدُّنيا مرَّة، وإلى صلاح الآخرة مرَّة أُخرى.

فيقول تعالى في تعليماته: (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (النساء/ 13). (وَمَنْ يَعُصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ) (النساء/ 14). (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة/ 7-8). (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) (القصاص/ 77).

ويحثُّ الناس - في كثير من آياته - على تحصيل العلم، وملازمة التقوى، بينما يبيح لهم لذائذ الحياة وجميع الطيبات: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الْفِتْرِ الَّتِي آتَى الْخَلْقَ لَعَبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) (الأعراف/ 32).

ويدعو كثيراً إلى عبادة الله، وإلى التفكير في آياته التشريعية والتكوينية، وإلى التأمل والتدبر في الآفاق وفي الأنفس، ومع ذلك، لم يقتصر على هذه الناحية التي توصل الإنسان بربه، بل تعرض للناحية الأخرى التي تجمعها مع أبناء نوعه.

وأحلّ له البيع: (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) (البقرة / 275). وأمره بالوفاء بالعقود: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) (المائدة / 1). وأمر بالتزويج الذي يكون به بقاء النوع الإنساني: (وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنَّ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيهِمْ) (البقرة / 234). (وَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ الدَّسَّاءِ مَن ثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنَّ خِفَتُمْ أَلَآ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) (النساء / 3).

وأمر الإنسان بالإحسان إلى زوجته، والقيام بشؤونها، وإلى الوالدين والأقربين، وإلى عامة المسلمين، بل وإلى البشر كافة. فقال: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) (النساء / 19). (وَالْهَنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيَّ هُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) (البقرة / 228). (وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) (النساء / 36). (وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (القصص / 77). (إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) (الأعراف / 56). (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة / 195).

هذه أمثلة من تعاليم القرآن التي نهج فيها منهج الاعتدال، وقد أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جميع أفراد الأمة، ولم يخصه بطائفة خاصة، ولا بأفراد مخصوصين، وهو بهذا التشريع، قد فتح لتعاليمه أبواب الانتشار، ونفخ فيها روح الحياة والاستمرار. فقد جعل كل واحد من أفراد العائلة والبيئة مرشداً لهم، ورفيقاً عليهم، بل جعل كل مسلم دليلاً وعيناً على سائر المسلمين، يهديهم إلى الرشاد، ويزجرهم عن البغي والفساد، فالمسلمون بأجمعهم مكلّفون بتبليغ الأحكام، وتنفيذها. أفهل تعلم جنوداً هي أقوى وأعظم تأثيراً من هذه الجنود، ونحن نرى السلاطين ينفّذون إرادتهم على الرعيّة بقوة جنودهم؟ ومن الواضح أنّهم لا يلازمون الرعيّة في جميع الأمكنة والأزمان، فكم فرق بين جنود الإسلام، وجنود السلاطين!

ومن أعظم تعاليم القرآن التي تجمع كلمة المسلمين، وتوحد بين صفوفهم: المؤاخاة بين طبقات المسلمين، ونبذ الميزات إلا من حيث العلم والتقوى، حيث يقول: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ كُتُوبًا عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاتُكُمْ) (الحجرات / 13). (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّنَا إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر / 9).

قال النبي (ص): «إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أعزّ بالإسلام من كان في الجاهلية ذليلاً، وأذهب بالإسلام ما كان من نخوة الجاهلية وتفاخرها بعشائرها وباسق أنسابها. فالناس اليوم كلهم؛ أبيضهم وأسودهم، وقرشيهم وعربيهم وعجميهم من آدم. وإنَّ آدم خلقه الله من طين، وإنَّ أحبَّ الناس إلى الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة أطوعهم له وأتقاهم». وقال: «فضل العالم على سائر الناس كفضلي على أدناكم».

فالإسلام قدّس سلمان الفارسي لكمال إيمانه، حتى جعله من أهل البيت، وأخّر أبا لهب عمّ رسول الله (ص) لكفره.

إنّك ترى أنّ نبي الإسلام لم يفتخر على قومه بنسب ولا حسب، ولا بغيرهما ممّا كان الافتخار به شائعاً في عصره، بل دعاهم إلى الإيمان بالله وبالיום الآخر، وإلى كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة، وبذلك قد تمكّن أن يسيطر على أمة كانت تتفاخر بالأنساب بقلوب ملؤها الشقاق والنفاق، فأثّر في طباعها حتى أزال الكبر والنخوة منها، فأصبح الغني الشريف يزوّج ابنته من المسلم الفقير، وإن كان أدنى منه في النسب.

هذه شريعة القرآن في إرشاداته وتعاليمه، تتفقّ د مصالح الفرد، ومصالح المجتمع، وتضع القوانين التي تكفل جميع ذلك، ما يعود منها إلى الدُّنيا وما يرجع إلى الآخرة. فهل يشكُّ عاقل بعد هذا في نبوّة مَن جاء بهذا الشرع العظيم، ولا سيّما إذا لاحظ أنَّ نبيّ الإسلام قد نشأ بين أُمّة وحشيّة، لا معرفة لها بشيء من هذه التعليمات؟!

المصدر: كتاب البيان في تفسير القرآن